بنو إسرائيل وملامح شخصيتهم

في التوراة والقرآن دراسة مقارنة

إعداد الدكتورة

سعاد مسلم محمد حماد

بنو إسرائيل وملامح شخصيتهم في التوراة والقرآن

دراسة مقارنة

سعاد مسلم محمد حماد

شعبة السنة وعلومها – قسم الدراسات الإسلامية – كلية الآداب والعلوم بمحايل – جامعة الملك خالد– أبها .

البريد الإلكتروني: shamad @kku.edu.sa

يهدف البحث إلى الحديث عن الكشف عن أخلاق بني إسرائيل وبيان آثارها في أعمالهم الدنيوية، ومآلاتهم الأخروية ممن تواتر فيه الخبر والعيان حتى يحذر المسلم من التأثر بأخلاقهم في سلوكه اليومي ، فمن ملامح شخصية بنى إسرائيل والتي ورد ذكرها في التوراة، والقرآن حتى سار ذلك لهم سمة أن لهم الكثير من النعم التي لا تحصى ولا تعد ، ومن هذه النعم (نعمة التفضيل والاختيار والتميز على العالمين–نعمة إنجائهم من عدوهم وتحريرهم من العبودية – نعمة فرق البحر بهم وإغراق آل فرعون وهم ينظرون – نعمة إنزال المن والسلوى – نعمة إغاثتهم بالماء بعد العطش في القفر– نعمة عفوه سبحانه وتعالى عنهم بعد عبادتهم العجل) فكان شعبا متقلبا لكل هذه النعم غير ذاكرا لما فعله الله معهم من عظائم ، في كل نعمة أعطاهم الله لها وأنعم عليهم فيها، وتأصل في بنى إسرائيل عدم الإعتراف بآيات الله تعالى حتى صار كالسجية الثابتة ، وبيان ما ترتب على موقفهم هذا من قصاص عادل من الله، تعالى وذلك ليكون في قصصهم عبرة وعظة تهدي الناس إلى أن يقوموا نحو خالقهم بواجب العبادة والشكر ولا يكونوا مثل بنى إسرائيل نحو نعم الله عليهم.

الكلمات المفتاحية: أخلاق – النعم –السجية – الشخصية– الجزاء – العبرة .

The sons of Israel and their personality traits

In the Torah and the Qur'an,

(a comparative study)

Souad Muslim Mohammed Hammad

Division of the Sunnah and its Sciences - Department of Islamic Studies - College of Arts and Sciences in Mahayel - King Khalid University - Abha.

Email: shamad @kku.edu.sa

The research aims to talk about revealing the morals of the sons of Israel and explaining their effects in their worldly deeds, and their future outcomes, which are frequent news and eyewitnesses. Among the features of the character of the sons of Israel, which were mentioned in the Torah and the Qur'an, to the extent that this went to them is a characteristic that they have many blessings that came in the Torah And the Holy Qur'an, including (the blessing of preference, choice, and distinction over the worlds - the blessing of saving them from their enemy and liberating them from slavery - the blessing of the sea division with them and the drowning of the folk of Pharaoh while they watched - the blessing of sending down manna and sallwa - the blessing of their relief with water after thirst in the wilderness - the blessing of His pardon for them after their worship The calf) was a people reversing all these blessings, not mentioning the great things that God had done with them.

In every blessing that God gave them to them and bestowed upon them in it, and the non-recognition of the verses of God Almighty was rooted

in the sons of Israel until it became like a fixed nature, and an explanation of the consequences of this position of just retribution from God Almighty, so that in their stories an example and a sermon that guides people to rise towards their Creator With the duty of worship and thanksgiving, they should not be like the sons of Israel towards the blessings of God upon them.

Keywords: morals - blessings - character - personality - punishment - lesson.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين. وبعد:

فإن علم "مقارنة الأديان" يسهم بلا ريب في عملية "الازدهار الحضاري" الذي تتسم بالتسامح والإيمان بالتعددية وقبول الآخرين، ويشعرنا بالتنوع وبالحرية والمسؤولية وعدم الإكراه، وتقبل الاختلاف ونبذ التعصب والانغلاق، والإيمان بأن التعددية والتنوع والاختلاف سنة إلهية تنظم المجتمعات الإنسانية بعيداً عن الفوضى والتعصب أو صراع الحضارات.

كما ترجع أهمية "علم مقارنة الأديان" إلى أنه يقدم فرصة ذهبية لفهم الذات وفهم الآخر معاً، فإن كثيراً من المشكلات والحساسيات والتعقيدات تنتج غالباً من الجهل بالذات أو الجهل بالآخر أو الاثنين معاً، وهذا ما نعُده سبباً لاختيار موضوع البحث.

وموضوع البحث: هو" ملمح من ملامح شخصية بني إسرائيل " كما صورتها كتبهم: التوراة، وأسفار الأنبياء والحكمة – العهد القديم– مقابلة بما جاء في القرآن الكريم؛ لتتكشف لنا جملة من سمات تلك الشخصية المحورية في واقعنا المعاش في ضوء خطاب القرآن الكريم عن بني إسرائيل وربطه المحكم بين طباع وأخلاق الآباء ممن عاصروا موسى وهارون ومن بعدهم من أنبياء الله تعالى، مروراً بالأبناء ممن عاصروا نبينا صلى الله عليه وسلم، وانتهاءً بمعاصرينا وبيان أن

انعكاس تلك الأخلاق إنما هو ميراث الخلف عن السلف.

أهمية البحث: ترجع أهمية البحث إلى أن السمات الشخصية "الأخلاقية" بنوعيها الحسن والقبيح أو الممدوحة والمذمومة في الإنسان لا تخلوا عن كونها جبلية أو مكتسبة؛ فالإنسان قابل للتطبع والتخلق، وكما قيل:

إذا أعجبك خصال امرئ فكنه يكن فيك ما يعجبك.

فليس على المجد والمكرمات إن رمتها حاجب يحجبك.[1]

ومساوئ الأخلاق ليست حكراً على نوع، ولا خاصة بملة دون أخرى، بل كل بني آدم قابل للتخلق بها جملة أو بأفرادها إن لم تكن فيه جبلة؛ الأمر الذي يحتم علينا أن نكشف عنها ونحذر من أسبابها وآثارها في المجتمع الإنساني عموماً والإسلامي خصوصاً ولا أفضل بالدراسة ممن تواتر فيه الخبر والعيان من بني إسرائيل؛ فكشف عن أخلاقهم وبين آثارها في أعمالهم الدنيوية ومآلاتهم الأخروية.

المنهج المتبع في البحث: اعتمدت المنهج الاستقرائي، والتحليلي المقارن بين نصوص التوراة والقرآن الكريم لاستخلاص السمات الأخلاقية الخاصة ببني إسرائيل؛ فهو الأنسب لموضوع البحث.

وجاء خطة البحث كالآتي:

أولاً: المقدمة، فيها: سبب البحث، وموضوعه، وأهميته، والمنهج المتبع، وخطة البحث.

ثانياً: تمهيد: بينت فيه مفهوم عنوان البحث وتعريف الأخلاق وأنواعها

---

(1) انظر: أدب الدنيا والدين. للماوردي علي بن محمد بن حبيب.(ص ٣٥٧). نشر دار الحياة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. والبيتان لطاهر بن الحسين.

وأقسامها.

ثالثاً: مبحث: بينت فيها ملمحاً من ملامح شخصية بني إسرائيل ألا وهو ، وهو ملمح من جملة ملامح لهذه الشخصية سنتناولها بالدراسة إن شاء الله في دراسة مطولة هي أصل هذا البحث.

رابعا: خلاصة البحث ونتائجه ثم الفهارس وثبت المراجع.

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم

تمهيد

بنو إسرائيل:

هم الاثنا عشر سبطاً أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وذرياتهم التي تكونت منها أمة بني إسرائيل، ففي الذكر الحكيم عن موسى عليه السلام:﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.[1] وفيه:﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.[2] سموا بذلك نسبة إلي يعقوب "إسرائيل" عليه السلام، قال تعالى:﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾.[3] وهو مركب عبري يعنى عبد الله أو صفوة الله؛ فـ"إسرا" بالعبرية تعني عبد أو صفوة، و"إيل" تعنى الله.[4] ولا يخفى أن بني إسرائيل صار اسماً يطلق بالغلبة على اليهود وإن لم يكونوا كلهم من بني إسرائيل عليه السلام حقيقةً.

و**ملامح شخصيتهم**: أعني بها ما بدا من محاسن أخلاقهم وغيرها، أو ما يلمح منها.[5]

فـ" الملامح لوافت في الشيء وسمات تميزه عن غيره". [6] لا على وجه كونها ثابتةٌ فيه فقط، بل قد تتغير؛ فإن من الملامح الشخصية –كالأخلاق– منها ما

---

(1) سورة الأعراف. الآية (١٦٠).
(2) سورة يونس. الآية (٩٠)
(3) سورة مريم. الآية (٥٨)
(4) انظر: بنو إسرائيل في الكتاب والسنة. الدكتور: محمد سيد طنطاوي (ص ١٢) نشر دار الشروق. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم "تاريخ وسمات ومصير" صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص ١٩) نشر دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٩ه ١٩٩٨م.
(5) انظر: المحكم والمحيط الأعظم. لابن سيده (جـ ٣ص٣٧٦) تحقيق: عبد الحميد هنداوي. نشر دار الكتب العلمية. بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ه. (مادة لمح)
(6) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. دكتور: محمد حسن جبل (جـ ٤ص٢٠٠٠) نشر دار الآداب القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠١٠م.

هو:"طبيعي"، "جبلي"، "فطري" ثابت في سلوك الشخص، ومنها ما هو: "مستفاد"، "مكتسب" فهو غير ثابت في سلوك الشخص.

والأخلاق في اللغة: جمع "خُلق" بسكون اللام وضمها، وتعنى: السجيَّة، والطبع، والمروءة، والدين"[1]، و"الخُلق: الخليقة، أي: الطبيعة، وفي التنزيل﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾".[2] والخلْق والخلُق في الأصل واحد كالشرْب والشرُب، والصرْم والصرُم، لكن خص الخلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة".[3]، وحقيقة الخلق:"أنه لصورة الإنسان الباطنة– وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها– بمنزلة الخلْق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة.[4]، والخلق في الاصطلاح، هي:"حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية".[5] ولا يخفي ما في هذا التعريف من شمول فليس كل فعل النفس يعد خلقاً لها؛ لأن من أفعالها ما قد يكون الباعث فيه لا إرادياً فلا يعد أخلاقياً أو غيره، كما أن السلوك الإرادي له أنواع شتى فليس كل سلوك مظهراً من مظاهر الأخلاق في النفس

---

(1) مختار الصحاح ـ محمد بن أبي بكر الرازيـ تحقيق: يوسف محمد. (ص ٩٥) باب الخاء. مادة خلق. نشر الدار العصرية ـ بيروتـ الطبعة الخامسة ١٤٢٠ه ١٩٩٩م، والقاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ تحقيق: محمد نعيم عرقسوس ـ (ص ٨٨١) نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثامنة ١٤٢٦ه ٢٠٠٥م.

(2) لسان العرب ـ محمد بن مكرم بن منظور ـ (ج١٠ـ ص٨٦) ـ نشر دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤١٤ه.

(3) المفردات في غريب القرآن. للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد. تحقيق: صفوان الداودي (ص ٢٩٧). نشر دار القلم. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢ه.

(4) النهاية في غريب الحديث الأثر. لابن الأثير المبارك بن محمد. تحقيق: طاهر الزواوي. محمود الطناحي. (جـ ٢ص٧٠) نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى:١٣٩٩ه ١٩٧٩م.

(5) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. ابن مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب. (ص ٤١). نشر مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. الطبعة الأولى.

البشرية"[1]؛ فـ"للنفس قوى مختلفة ووظائف متنوعة لا تندرج تحت قانون الأخلاق البتة؛ فهناك ملكات الإدراك والتفكير والحكم والتخيل والتذكر، كما أن لها وجدان وانفعالات وغرائز ونزعات، وهذه كلها لا تندرج تحت القانون الأخلاقي كما هو معلوم".[2]

وعليه فالخلق:" قوة راسخة في النفس تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح إن كان الخلق حميداً أو إلى اختيار ما هو شر وجور إن كان الخلق ذميماً".[3]

والخلق المحمود: "صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادي محمود عند العقلاء كالأخذ بالحق أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى، وترك الباطل والشر والقبح وإن وافق الهوى أو الشهوة، ويمكن تمييز الأخلاق الحميدة عن غيرها بأنها كل سلوك فردي أو اجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استحسانه مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره أو فرعاً من فروعه.

و**الخلق المذموم:** صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادي مذموم عند العقلاء كالأخذ بالباطل أو الشر أو القبح وترك الحق أو الخير

---

(1) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص ١٠ وما بعدها) نشر دار القلم دمشق. الطبعة الخامسة ١٤٢٠ه ١٩٩٩م.

(2) انظر: أخلاق النبي في الكتاب والسنة. أحمد عبد العزيز قاسم. (ص٤) رسالة جامعية. بجامعة أم القرى. قسم الكتاب والسنة. العام الجامعي. ١٤١٣ه. نقلا عن درسات إسلامية في العلاقة الاجتماعية والدولية. للدكتور عبد الله دراز (ص ٧٨ وما بعدها بتصرف) والأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص ١٠ وما بعدها) نشر دار القلم دمشق. الطبعة الخامسة ١٤٢٠ه ١٩٩٩م.

(3) انظر: درسات إسلامية في العلاقة الاجتماعية والدولية. للدكتور عبد الله دراز (ص ٧٨ وما بعدها بتصرف)

أو الجمال اتباعاً للهوى أو الشهوة، ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنها كل سلوك فردي واجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استقباحه واستنكاره مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره أو فرعاً من فروعه".[1]

وهذا التقسيم للأخلاق:" فطري، وكسبي" يبين أن الأخلاق قابلة للتغيير؛ إذ لو كانت الأخلاق كلها "فطرية" لما أمكن تغيرها، وفي حديث: " أربع من كن فيه" قال صلى الله عليه وسلم :"حتى يدعها".[2] دلالة على أن تغيير الخلق ممكن؛ فاكتساب الأخلاق "بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب؛ فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق "الجود" فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له، ويتيسر عليه؛ فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق "التواضع" وقد غلب عليه "الكبر" فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها مجاهدٌ نفسه، ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له، وطبعاً فيتيسر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق".[3]

كما أن النهي الوارد في الشريعة عن التشبه بأهل الكتاب مما تلبسوا به مما نهاهم عنه أنبياؤهم قبل نسخ دينهم أو مما ابتدعوه ولم يكن مشروعاً ثم نسخ يؤكد ذلك المعنى؛ فإن التشبيه: "عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به

---

(1) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص ١٦) نشر دار القلم دمشق. الطبعة الخامسة ١٤٢٠ه ١٩٩٩م.

(2) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري باب: إذا خاصم فجر (جـ ٣ص ١٧٢ رقم:٢٤٥٩)، ومسلم في صحيحه. باب: بيان خصال المنافق (جـ ١ص٧٨ رقم:٥٨).

(3) إحياء علوم الدين. للعزالي محمد بن محمد الطوسي. (٥٨/٣) نشر دار المعرفة بيروت.

وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته أو هو عبارة عن تكلف ذلك وتقصده ...، وقد يعبر عن التشبه بالتشكل والتمثل والتزين والتحلي والتخلق أو يختص هذا الأخير بتكلف الأخلاق الباطنة والطبائع والصفات اللازمة".[1]

(1) حسن التنبه لما ورد في التشبه. الغزي محمد بن محمد العامري. تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين عتر.(١٥/١ وما بعدها) نشر دار النوادر. سوريا. الطبعة الأولى ١٤٣٢ه ٢٠١١م.

من ملامح شخصية بني إسرائيل

بيان موقفهم من نعم الله عليهم

الناظر في كتاب الله تعالى، وفي التوراة يرى بوضوح ذكراً وتذكيراً بنعم الله تعالى الكثيرة التي أنعم بها على بني إسرائيل، و"النعمة" في المعنى اللغوي خلاف "البؤس"، كما أنها تطلق على الصنيعة والمنة، و"نعمة الله" عطاؤه العبد مما لا يمكن لغيره أن يعطيه إياه.[1] وحد النعمة أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ويستحق بها الشكر. [2] ونعم الله على بني إسرائيل عديدة متنوعة كتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من عدوهم، وفرق البحر لهم، وكثرة العفو عنهم مع تكاثر ذنوبهم مرة بعد مرة، وبعثهم من بعد موتهم، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، وتفجير الحجر عيوناً لهم، ودخولهم الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وكثرة الأنبياء فيهم،... إلى غير ذلك من وجوه النعم التي تستوجب شكر الله تعالى وحمده، إلا أن ما يلفت النظر هو مقابلتهم هذه النعم بعد الشكر والنكران مرة بعد مرة، حتى صار ذلك لهم سمة، وإذا كانت الغاية من تذكيرهم بتلك النعم الربانية لتليين قلوبهم، واستحياء معاني الخير في نفوسهم؛ فتوجههم إلى شكر المنعم وحمده والثناء عليه، إلا أن تلك السمات التي تأصلت فيهم أورثتهم قسوة القلب، وإذا قيل إن هذه النعم ما كانت للمخاطبين بل كانت لآبائهم فكيف تكون نعماً عليهم وسبباً لعظم شأنهم ؟! فالجواب: لولا هذه النعم على آبائهم لما بقوا فما كان يحصل هذا النسل؛ فصارت النعم على الآباء كأنها نعم على الأبناء، فعلى

---

(1) لسان العرب لابن منظور (جـ ١٢ ص ٥٧٩ وما بعدها بتصرف).
(2) مفاتيح الغيب "التفسير الكبير" لمحمد بن عمر الرازي (جـ ٣ ص ٣١) نشر دار الفكر بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠١ه ١٩٨١م.

الأبناء متى سمعوا أن الله تعالى خص آباءهم بهذه النعم لمكان طاعتهم وإعراضهم لأن الولد مجبول على التشبه بالأب في أفعال الخير؛ فيصير هذا التذكير داعياً إلى الاشتغال بالخيرات والإعراض عن الشرور. [1]

(1) مفاتيح الغيب للرازي (جـ ٣ص ٣٦).

المطلب الأول

نعمة (التفضيل أو الاختيار أو التمييز) على العالمين

وهذه القضية غاية في الأهمية أن نصدر بها الكلام على السمات الشخصية الإسرائيلية؛ ذلك أن القرآن الكريم ونصوص التوراة التي بين أيدينا تتفق على التصريح بهذا التفضيل والاختيار الأمر الذي ترتب عليه آثار وأحكام، فمن ثم فهي في حاجة إلى بيان وتجلية[١]، فمن تلك النصوص التي جاءت بتفضيل بني إسرائيل.

قوله في التوراة:(فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ، وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً).[٢]

وقوله:(لأَنَّكَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، وَقَدِ اخْتَارَكَ الرَّبُّ لِكَيْ تَكُونَ لَهُ شَعْبًا خَاصًّا فَوْقَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ).[٣]

وقوله:(أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي مَيَّزَكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ) .[٤] وقوله:(وَتَكُونُونَ لِي قِدِّيسِينَ لأَنِّي قُدُّوسٌ أَنَا الرَّبُّ، وَقَدْ مَيَّزْتُكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ لِتَكُونُوا لِي).[٥]

وفي القرآن الكريم:

قوله تعالى:﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[١]

---

(١) في مقارنة الأديان (ص٢٣٥).
(٢) سفر الخروج (١٩: ٥).
(٣) سفر التثنية (١٤: ٢).
(٤) سفر اللاويين (٢٠: ٢٤).
(٥) سفر اللاويين (٢٠: ٢٦).

وقوله:﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[٢]

وقوله:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[٣]

وقال موسى لقومه:﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[٤]

والتكرار في الأسلوب الخطابي يفيد التذكير والتأكيد على الاهتمام بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من قضايا؛ لأن هذا التفضيل والاختيار والتميز نِعمٌ، وتكرار الحديث عنها له تأثير في القلب؛ فيدفع النفس إلى شكر المنْعِم وحمده؛ ولأن الاختصاص بالإنعام هي محض فضل، قال تعالى:﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ في أكثر من موضع من كتابه.

وقال تعالى في خصوص بني إسرائيل:﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[٥] وقال:﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[٦]

وقال:﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [٤] وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٧] والمنُ هو الفضل.

---

(١) سورة البقرة. الآية (٤٧).
(٢) سورة الدخان. الآية (٣٢).
(٣) سورة الجاثية. الآية (١٦).
(٤) سورة الأعراف. الآية (١٤٠).
(٥) سورة البقرة الآية (٤٧).
(٦) سورة البقرة الآية (٦٤).
(٧) سورة القصص. الآية (٤-٥).

وفي التوراة:(قَدْ سَمِعْتُ أَنِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ الْمِصْرِيُّونَ، وَتَذَكَّرْتُ عَهْدِي؛ لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ، وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ، وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ، وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ، وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا)[١]

وقال:(لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ؛ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، لَيْسَ مِنْ كَوْنِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ، الْتَصَقَ الرَّبُّ بِكُمْ وَاخْتَارَكُمْ؛ لأَنَّكُمْ أَقَلُّ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ. بَلْ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّبِّ إِيَّاكُمْ، وَحِفْظِهِ الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَ لآبَائِكُمْ).[٢]

وعلى كلٍ فإن التذكير بالإنعام وتكرار الحديث عنه يدفع النفس إلى الحفاظ على موجبات هذه النعم، والاتصاف بما يناسبها ويستبقيها؛ لذلك نجد السوابق واللواحق في النصوص القرآنية والتوراتية تتحدث عن موجبات هذه النعم وموانعها؛ مما يبين أن استمرارها وبقاءها مشروط ومقيد بأسبابها.

فنجد في التوراة: قوله:(يُقِيمُكَ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ شَعْبًا مُقَدَّسًا كَمَا حَلَفَ لَكَ، إِذَا حَفِظْتَ وَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكَ وَسَلَكْتَ فِي طُرُقِهِ)[٣]

ويقول:(إِذَا سَلَكْتُمْ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا ...، أَجْعَلُ مَسْكَنِي فِي وَسَطِكُمْ، وَلاَ تَرْذُلُكُمْ نَفْسِي، وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْبًا) [٤]

---

(١) سفر الخروج (٦: ٥-٧)
(٢) سفر التثنية (٧: ٨).
(٣) سفر التثنية (٢٨: ٩).
(٤) سفر اللاويين (٢٦: ٣-١٢).

ويقول:(وَلاَ تَسْلُكُونَ فِي رُسُومِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ أَنَا طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ؛ لأَنَّهُمْ قَدْ فَعَلُوا كُلَّ هذِهِ؛ فَكَرِهْتُهُمْ، وَقُلْتُ لَكُمْ: تَرِثُونَ أَنْتُمْ أَرْضَهُمْ، وَأَنَا أُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا لِتَرِثُوهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي مَيَّزَكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ).[١] وقوله:(إِنَّكُمْ قَدِ ارْتَدَدْتُمْ عَنِ الرَّبِّ، فَالرَّبُّ لاَ يَكُونُ مَعَكُمْ)[٢]

وهذا يبين لنا أن "المحبة" التي بها نالوا التمييز والاختيار– كما هو في النص التوراتي– ليست أبدية بل مشروطة بحفظ الوصايا والعمل بها والسلوك في الفرائض، واجتناب النواهي التي نهاهم عنها وإلا رذلتهم نفسه، وكرههم كما كره الشعوب التي طرد أمامهم، ولم يجعل مسكنه في وسطهم.[٣]

وبذلك يفقدوا تمييزهم، ويؤكد ذلك المفهوم قول موسى:(أَلَيْسَ بِمَسِيرِكَ مَعَنَا؟ فَنَمْتَازَ أَنَا وَشَعْبُكَ عَنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ) [٤] وهذه معية حفظ ورعاية وهي التي بها امتازوا على شعوب أهل زمانه.

وأيضاً إذا كان هذا التفضيل حفظاً للقسم أو العهد الذي أخذه مع آبائهم والوفاء به– كما في النص التوراتي– فإنه مشروط أيضاً بوفائهم بعهودهم وليس أبدياً؛ يقول لهم:(فَاحْفَظُوا كَلِمَاتِ هذَا الْعَهْدِ وَاعْمَلُوا بِهَا لِكَيْ تَفْلِحُوا فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُونَ... لِكَيْ تَدْخُلَ فِي عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكَ وَقَسَمِهِ الَّذِي يَقْطَعُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ مَعَكَ الْيَوْمَ، لِكَيْ يُقِيمَكَ الْيَوْمَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا، وَهُوَ يَكُونُ لَكَ إِلهًا كَمَا قَالَ لَكَ، وَكَمَا حَلَفَ

---

(١) سفر اللاويين (٢٠: ٢٢-٢٤).
(٢) سفر العدد (١٤: ٤٣).
(٣) في التفسير القويم في تفسير سفر التثنية لوليم مارش (ص١٤٠):"**ولا ترذلكم نفسي**: أي لا يرجع عن رضاه عنهم".
(٤) سفر الخروج (٣٣: ١٦).

لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...) [1] ويقول:(قَدْ وَاعَدْتَ الرَّبَّ الْيَوْمَ أَنْ يَكُونَ لَكَ إِلهًا، وَأَنْ تَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ وَتَحْفَظَ فَرَائِضَهُ وَوَصَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ وَتَسْمَعَ لِصَوْتِهِ؛ وَوَاعَدَكَ الرَّبُّ الْيَوْمَ أَنْ تَكُونَ لَهُ شَعْبًا خَاصًّا، كَمَا قَالَ لَكَ، وَتَحْفَظَ جَمِيعَ وَصَايَاهُ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُسْتَعْلِيًا عَلَى جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الَّتِي عَمِلَهَا فِي الثَّنَاءِ وَالاسْمِ وَالْبَهَاءِ، وَأَنْ تَكُونَ شَعْبًا مُقَدَّسًا لِلرَّبِّ إِلهِكَ، كَمَا قَالَ).[2]

يقول:(وَيَجْعَلُكَ الرَّبُّ رَأْسًا لاَ ذَنَبًا، وَتَكُونُ فِي الارْتِفَاعِ فَقَطْ وَلاَ تَكُونُ فِي الانْحِطَاطِ، إِذَا سَمِعْتَ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا)[3]

ويقول:(وَإِنْ سَمِعْتَ سَمْعًا لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ، لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، يَجْعَلُكَ الرَّبُّ إِلهُكَ: مُسْتَعْلِيًا عَلَى جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ، وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ الْبَرَكَاتِ وَتُدْرِكُكَ، إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ مُبَارَكًا تَكُونُ..) [4]

ويقول:(فَتَعْمَلُونَ فَرَائِضِي وَتَحْفَظُونَ أَحْكَامِي وَتَعْمَلُونَهَا لِتَسْكُنُوا عَلَى الأَرْضِ آمِنِينَ. وَتُعْطِي الأَرْضُ ثَمَرَهَا فَتَأْكُلُونَ لِلشِّبَعِ، وَتَسْكُنُونَ عَلَيْهَا آمِنِينَ) [5].

وهذه النصوص تؤكد أن "الاختيار، والتمييز" مشروط بحفظ الوصايا والعمل بها، والسلوك في الفرائض؛ وإلا (ترذلكم نفسي) أي ترفضكم، ويؤكد ذلك قوله لهم:(وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً:كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقُلْ لَهُمْ: أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ، مِثْلَ عَمَلِ أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي سَكَنْتُمْ فِيهَا لاَ تَعْمَلُوا، وَمِثْلَ عَمَلِ أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا آتٍ بِكُمْ

(1) سفر التثنية (٢٩: ٩-١٣).
(2) سفر التثنية (٢٧:).
(3) سفر التثنية (٢٨: ١٣).
(4) سفر التثنية (٢٨: ١-٥).
(5) سفر اللاويين (٢٥: ١٨-١٩).

إِلَيْهَا لاَ تَعْمَلُوا، وَحَسَبَ فَرَائِضِهِمْ لاَ تَسْلُكُوا، أَحْكَامِي تَعْمَلُونَ، وَفَرَائِضِي تَحْفَظُونَ؛ لِتَسْلُكُوا فِيهَا. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ، فَتَحْفَظُونَ فَرَائِضِي وَأَحْكَامِي، الَّتِي إِذَا فَعَلَهَا الإِنْسَانُ يَحْيَا بِهَا)[1]

وقال:(انظُرْ قَدْ جَعَلْتُ الْيَوْمَ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ، بِمَا أَنِّي أَوْصَيْتُكَ الْيَوْمَ أَنْ تُحِبَّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ وَتَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ وَأَحْكَامَهُ لِكَيْ تَحْيَا وَتَنْمُوَ، وَيُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا. فَإِنِ انْصَرَفَ قَلْبُكَ وَلَمْ تَسْمَعْ، بَلْ غَوَيْتَ وَسَجَدْتَ لآلِهَةٍ أُخْرَى وَعَبَدْتَهَا، فَإِنِّي أُنْبِئُكُمُ الْيَوْمَ أَنَّكُمْ لاَ مَحَالَةَ تَهْلِكُونَ، أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ؛ فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ، إِذْ تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْمَعُ لِصَوْتِهِ وَتَلْتَصِقُ بِهِ، لأَنَّهُ هُوَ حَيَاتُكَ وَالَّذِي يُطِيلُ أَيَّامَكَ لِكَيْ تَسْكُنَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا) [2]

ويقول:(وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُدْرِكُكَ) [3]

وفي سفر أخبار الأيام الثاني قال:(وَلكِنْ إِنِ انْقَلَبْتُمْ وَتَرَكْتُمْ فَرَائِضِي وَوَصَايَايَ الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَكُمْ، وَذَهَبْتُمْ وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً أُخْرَى وَسَجَدْتُمْ لَهَا، فَإِنِّي أَقْلَعُهُمْ مِنْ أَرْضِي الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، وَهذَا الْبَيْتُ الَّذِي قَدَّسْتُهُ لاسْمِي أَطْرَحُهُ مِنْ أَمَامِي

(1) سفر اللاويين (١٨: ١-٥).
(2) سفر التثنية (٣٠: ١٥-٢٠).
(3) سفر التثنية (٢٨: ١٥).

وَأَجْعَلُهُ مَثَلاً وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ. وَهذَا الْبَيْتُ الَّذِي كَانَ مُرْتَفِعًا، كُلُّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ يَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ: لِمَاذَا عَمِلَ الرَّبُّ هكَذَا لِهذِهِ الأَرْضِ وَلِهذَا الْبَيْتِ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَ آبَائِهِمِ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَتَمَسَّكُوا بِآلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا وَعَبَدُوهَا، لِذلِكَ جَلَبَ عَلَيْهِمْ كُلَّ هذَا الشَّرِّ) .[1]

بل في التوراة ما يبيّن أن هذه المنزلة – الاختيار والتمييز– لا تخص جيلا دون آخر بل هي لازمة لشروطها؛ فمتى تحقق الشرط كانت النتيجة، قال في التوراة:(وَلَيْسَ مَعَكُمْ وَحْدَكُمْ أَقْطَعُ أَنَا هذَا الْعَهْدَ وَهذَا الْقَسَمَ، بَلْ مَعَ الَّذِي هُوَ هُنَا مَعَنَا وَاقِفًا الْيَوْمَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِنَا، وَمَعَ الَّذِي لَيْسَ هُنَا مَعَنَا الْيَوْمَ) [2]

وفي الملوك أول:(إِنْ كُنْتُمْ تَنْقَلِبُونَ أَنْتُمْ أَوْ أَبْنَاؤُكُمْ مِنْ وَرَائِي، وَلاَ تَحْفَظُونَ وَصَايَايَ، وفَرَائِضِيَ الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَكُمْ، بَلْ تَذْهَبُونَ وَتَعْبُدُونَ آلِهَةً أُخْرَى وَتَسْجُدُونَ لَهَا؛ فَإِنِّي أَقْطَعُ إِسْرَائِيلَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، وَالْبَيْتُ الَّذِي قَدَّسْتُهُ لاسْمِي أَنْفِيهِ مِنْ أَمَامِي، وَيَكُونُ إِسْرَائِيلُ مَثَلاً وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ، وَهذَا الْبَيْتُ يَكُونُ عِبْرَةً. كُلُّ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَتَعَجَّبُ وَيَصْفُرُ، وَيَقُولُونَ: لِمَاذَا عَمِلَ الرَّبُّ هكَذَا لِهذِهِ الأَرْضِ وَلِهذَا الْبَيْتِ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَهُمُ الَّذِي أَخْرَجَ آبَاءَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَتَمَسَّكُوا بِآلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا وَعَبَدُوهَا، لِذلِكَ جَلَبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ هذَا الشَّرِّ) .[3]

---

(1) سفر الأخبار ثاني (٧: ١٩-٢٢).
(2) سفر التثنية (٢٩: ١٤-١٦).
(3) سفر الملوك أول (٩: ٦-٩).

وفي سفر زكريا:(فيَتَّصِلُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ بِالرَّبِّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، وَيَكُونُونَ لِي شَعْبًا).[1]

ودلالة هذه النصوص تبين أن كل من دخل في طاعة الله والتزمها يدخل في عباده المشمولين بحفظ الله ورعايته وتفضيله.

أما في القرآن فنجد السياقات التي ذكر فيها "الاختيار والتفضيل" لبني إسرائيل تضيف على تلك المعاني معانٍ أخر جديدة:

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ [٣٠] مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ [٣١] وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [٣٢] وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾.[2] أى: ولقد نجينا بفضلنا وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذي كان ينزله بهم فرعون وجنده، بأن أغرقناه ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلوماً غشوماً، وفضلاً عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل- على علم منا بما يكون منهم- على عالمي زمانهم، وآتيناهم من النعم والمعجزات ما فيه اختبار لقلوبهم، وامتحان لنفوسهم".[3]

تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ [١٦] وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.[4] والمعنى: ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم

---

(1) سفر زكريا (٢: ١١).
(2) سورة الدخان. الآية (٣٠-٣٣)
(3) التفسير الوسيط. للدكتور: محمد سيد طنطاوي (جـ ١ص١١٧) نشر دار النهضة مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
(4) سورة الجاثية. الآية (١٦-١٧).

الحكمة والفقه في الدين، وجعلنا النبوة في عدد كبير منهم، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم قبل بعثة النبي صلّى الله عليه وسلم، وفضلاً عن ذلك: فقد سقنا لهم على أيدى أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التي تقوى إيمانهم، وتهديهم إلى الطريق المستقيم، ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم بل جعلوا علمهم بالدين الحق سبباً للخلاف والشقاق، والسير في طريق الضلال، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم".[1]

وقال تعالى:﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.[2] وهذا النداء- يا بني إسرائيل- كثيراً ما يتكرر في مخاطباتهم لمحبتهم له، ولما في التكرار من تأكيد وتذكير بواجب الشكر، واهتماماً بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات، وتفصيلاً لما أسبغه الله عليهم من مننٍ؛ ليكون التذكير أتم والتأثير أشد، والشكر عليها أرجى، وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما في حال ذكر النعم؛ لأن تكرارها يغرى النفوس الكريمة بطاعة مرسلها، والسير على الطريق القويم، وقوله تعالى:﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عطف على نعمتي، أى واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة، فعطفه على نِعْمَتِيَ من عطف الخاص على العام للعناية

(1) التفسير الوسيط. للدكتور: محمد سيد طنطاوي (جـ ١ص١١٧).
(2) سورة البقرة. الآية (٤٧-٤٨).

به، وهو– أى: التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها، والمقصود منه الحض على الاتصاف بما يناسب تلك النعم، ويستبقى ذلك الفضل".[١]

وقوله:﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، بعد أن ذكرهم– سبحانه– في الآية السابقة بنعمة عظمى من نعمه حذرهم في هذه الآية الكريمة من التقصير في العمل الصالح، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمي زمانهم قد يحملهم على الغرور، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا؛ فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك الأوهام بأحكم عبارة وأجمع بيان.[٢] وبذلك نخرج بأن تفضيل بني إسرائيل في القرآن والتوراة كان تفضيلاً غير مستغرق لهم بل هو تفضيل لمن حفظ عهد الله ومواثيقه منهم فيدور معه التفضيل دور العلة بمعلوها، بمعنى إذا وجد الصلاح على الوجه الذي يرتضيه الله تعالى منهم استحقوا التفضيل؛ لذلك حذرهم في القرآن والتوراة من كفران نعمه ونقض عهده فيحل عليهم لعنته وغضبه فلا يعودوا أهلا لإنعامه ولا محلاً لتفضيله.

قال تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.[٣] وفي التوراة:(احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَنْسَوْا عَهْدَ الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّذِي قَطَعَهُ مَعَكُمْ...، إِذَا وَلَدْتُمْ أَوْلاَدًا وَأَوْلاَدَ أَوْلاَدٍ، وَأَطَلْتُمُ الزَّمَانَ فِي الأَرْضِ،

(١) التفسير الوسيط. للدكتور: محمد سيد طنطاوي (جـ ١ص١١٦).
(٢) التفسير الوسيط. للدكتور: محمد سيد طنطاوي (جـ ١ص١١٨).
(٣) سورة طه الآية (٨٠-٨٢).

وَفَسَدْتُمْ وَصَنَعْتُمْ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا صُورَةَ شَيْءٍ مَّا...، أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ أَنَّكُمْ تَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الأَرْضِ ...، بَلْ تَهْلِكُونَ لاَ مَحَالَةَ) [١]. وهذا يؤكد أنه كان تفضيلاً زمانياً؛ فإن صالح بني إسرائيل زمن موسى كانوا أفضل أهل زمانهم كما أن صالح كل زمان هم أفضل أهل زمانهم؛ لتحقق صلاحهم وسط فساد من حولهم. قال في التوراة:(لَيْسَ لأَجْلِ بِرِّكَ وَعَدَالَةِ قَلْبِكَ تَدْخُلُ لِتَمْتَلِكَ أَرْضَهُمْ، بَلْ لأَجْلِ إِثْمِ أُولئِكَ الشُّعُوبِ يَطْرُدُهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ أَمَامِكَ، وَلِكَيْ يَفِيَ بِالْكَلاَمِ الَّذِي أَقْسَمَ الرَّبُّ عَلَيْهِ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لأَجْلِ بِرِّكَ يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ هذِهِ الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ لِتَمْتَلِكَهَا، لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ) [٢] .

(١) سفر التثنية (٤: ٢٣-٣١).
(٢) سفر التثنية (٩: ٥-٦).

المطلب الثاني

نعمة إنجائهم من عدوهم وتحريرهم من العبودية

تكرر تذكير بني إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم في مواضع متعددة في القرآن والتوراة، وذلك لجلال شأنها، والملاحظ أن السياق القرآن والتوراتي عند حديثه عن هذه النعمة إما أن يذكرهم بنعمه الكثيرة عليهم؛ ليستحثهم على شكره وحمده والوفاء بعهده وطاعة أمره..، أو يأتي في السياق بأمر أو نهي؛ فيسهل على نفوسهم فعله، من ذلك في التوراة قوله:(وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَصَرَخُوا، فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الْعُبُودِيَّةِ. [٢٤]فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ) .[١]

وقال:(قَدْ سَمِعْتُ أَنِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ الْمِصْرِيُّونَ، وَتَذَكَّرْتُ عَهْدِي؛ لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا).[٢]، وقال:(أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ، لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.).[٣]، وقال:(وَإِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ، فَاعْضُدْهُ غَرِيبًا أَوْ مُسْتَوْطِنًا فَيَعِيشَ مَعَكَ، لاَ تَأْخُذْ مِنْهُ رِبًا وَلاَ مُرَابَحَةً، بَلِ اخْشَ إِلهَكَ، فَيَعِيشَ أَخُوكَ مَعَكَ. فِضَّتَكَ لاَ تُعْطِهِ بِالرِّبَا، وَطَعَامَكَ لاَ تُعْطِ بِالْمُرَابَحَةِ. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيُعْطِيَكُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ، فَيَكُونَ لَكُمْ إِلهًا. وَإِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ عِنْدَكَ وَبِيعَ لَكَ، فَلاَ تَسْتَعْبِدْهُ اسْتِعْبَادَ عَبْدٍ.

---

(١) سفر الخروج (٢: ٢٣-٢٤).
(٢) سفر الخروج (٦: ٥-٧).
(٣) سفر الخروج (٢٠: ٢-٣).

كَأَجِيرٍ، كَنَزِيل يَكُونُ عِنْدَكَ).[1] وقال:(فَمَتَى أَكَلْتَ وَشَبِعْتَ تُبَارِكُ الرَّبَّ إِلهَكَ لأَجْلِ الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ الَّتِي أَعْطَاكَ. اِحْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَنْسَى الرَّبَّ إِلهَكَ، وَلاَ تَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ؛ لِئَلاَّ إِذَا أَكَلْتَ وَشَبِعْتَ، وَبَنَيْتَ بُيُوتًا جَيِّدَةً وَسَكَنْتَ، وَكَثُرَتْ بَقَرُكَ وَغَنَمُكَ، وَكَثُرَتْ لَكَ الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ، وَكَثُرَ كُلُّ مَا لَكَ يَرْتَفِعُ قَلْبُكَ، وَتَنْسَى الرَّبَّ إِلهَكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ، الَّذِي سَارَ بِكَ فِي الْقَفْرِ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ، مَكَانِ حَيَّاتٍ مُحْرِقَةٍ، وَعَقَارِبَ، وَعَطَشٍ حَيْثُ لَيْسَ مَاءٌ، الَّذِي أَخْرَجَ لَكَ مَاءً مِنْ صَخْرَةِ الصَّوَّانِ، الَّذِي أَطْعَمَكَ فِي الْبَرِّيَّةِ الْمَنَّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ آبَاؤُكَ، لِكَيْ يُذِلَّكَ وَيُجَرِّبَكَ، لِكَيْ يُحْسِنَ إِلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ، وَلِئَلاَّ تَقُولَ فِي قَلْبِكَ: قُوَّتِي وَقُدْرَةُ يَدِيَ اصْطَنَعَتْ لِي هذِهِ الثَّرْوَةَ. بَلِ اذْكُرِ الرَّبَّ إِلهَكَ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُعْطِيكَ قُوَّةً لاصْطِنَاعِ الثَّرْوَةِ)[2] ولا شك أن في مخاطبتهم بهذه النعم مع تذكيرهم بنعمة الإنجاء التي كانت لآبائهم؛ لأنها في حقهم نعمتين: نعمة إنجائهم بنجاة أصلهم فإن الفرع تبعاً للأصل فلو استمر العذاب للآباء على يد فرعون لفني الأبناء أو بقي عليهم العذاب، ونعمة التمتع بالحياة بسببها؛ فيقدروا هذه النعم؛ فيخلصوا لربهم فيحمدوه ويشكروه ويطيعوا أمره.

وفي القرآن: قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.[3]، و قال تعالى:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ

(1) سفر اللاويين (٢٥: ٣٥-٣٩).
(2) سفر التثنية (٨: ١٠-١٨).
(3) سورة إبراهيم. الآية (٦).

عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.[1] وهذا الأسلوب في الخطاب يظهر أن خصالاً كالعناد ، وسرعة التقلب .. إلى غير تلك الخصال قد ترسخت في نفوسهم، الأمر الذي يستوجب أن تستنهض فيهم الصفات الحميدة من شكر المنعم، ورحمة الضعيف، وإعانة المحتاج، ونصرة المظلوم، والوفاء بالعهود، وأداء الحقوق .. إلى آخر تلك الصفات الحميدة التي تديم النعم ولا تمحها، وتعين على فعل المكروه إلى النفس وإن كان محبباً إلى الله، وترك المحبب إلى النفس؛ لأنه مكروه عند الله، وليس أجدى في ذلك من تذكيرهم بحالتهم الأولى التي كانوا فيها يتطلعون إلى تلك الصفات الحميدة في من تسلط عليهم؛ فلا يسومهم سوء العذاب أو إلى من يخلصهم؛ فهذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم، وتعظيم النعمة يوجب الانقياد والطاعة، ويقتضي نهاية قبح المخالفة والمعاندة؛ فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه النعمة العظيمة مبالغة في إلزام الحجة عليهم).[2]

---

(1) سورة البقرة. الآية (٤٩-٥٠).

(2) مفاتيح الغيب. للرازي محمد بن عمر بن الحسين.(جـ ٣ ض ٦٦) نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢١ه .

المطلب الثالث

نعمة فرق البحر بهم، وإغراق آل فرعون وهم ينظرون

تكرر أيضا ذكر هذه النعمة في القرآن وفي التوراة بل سمي سفراً من أسفار التوراة باسمها "سفر الخروج"، وذلك لما في هذه الحادثة من نعم، ولما لها من أثر في عموم بني إسرائيل وفي غيرهم من أهل زمانهم ممن سمع بها.

كما أن مشاهدة بني إسرائيل هلاك العدو أرجى لشكر النعمة وحمد المنعم، وفي ذلك من أيضاً لذة للنفس بالشماتة في العدو ومآله، كما أن فيها عبرةً، وأسباباً تقوي الإيمان وتجدده، وقد ذكرت في التوراة بصور مختلفة بين مفصلة ومجملة، وفيها بعض الاختلافات عما ذكر في القرآن – وقد تجاوزت ذلك اختصاراً وسنعرض لها إن شاء الله في البحث المطول.

جاء في التوراة بعد ذكر جملة من الآيات العظيمة والمعاناة التي لحقت ببني إسرائيل من قسوة قلب فرعون وعناده ونكوله عن العهد مرة بعد مرة حتى أذن لهم عن اضطرارٍ أن ينطلقوا، قال:(فَدَعَا – فرعون– مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلاً وَقَالَ: قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا).[1] وفي التوراة أن قوم فرعون أيضاً ألحوا في طلب إخراجهم؛ جاء في التوراة:(وَأَلَحَّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلاً مِنَ الأَرْضِ).[2]

وقضية خروجهم في الليل جاء ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.[3]

---

(١) سفر الخروج (١٢: ٣١).
(٢) سفر الخروج (١٢: ٣٣).
(٣) سورة الدخان. الآية (٥٢).

قال القرطبي:" أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً، وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف، والخوف يكون بوجهين: إما من العدو؛ فيتخذ الليل ستراً مسدلاً فهو من أستار الله تعالى. وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحر أو جدب؛ فيتخذ السير مصلحة من ذلك".[1]

فلما علم أن بني إسرائيل قد خرجوا ليلاً أرسل طالباً حشر قواته، قال تعالى:﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.[2]

ولا ريب أن الآيات التي ضرب الله بها المصريين كانت ماثلة أمام أعينهم؛ فقال لهم فرعون مشجعاً:﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.[3] والشرذمة كل شيء بقيته، وحاذرون، أي: مستعدون بالسلاح ونحوه.[4]؛ ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾.[5] أي في وقت طلوع الشمس؛ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.[6]

وهذا الحالة الشديدة الصعوبة على الشعب صورتها التوراة مفصلةً وجاء فيها:(فَلَمَّا اقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ رَفَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عُيُونَهُمْ، وَإِذَا الْمِصْرِيُّونَ رَاحِلُونَ وَرَاءَهُمْ. فَفَزِعُوا جِدًّا، وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ. وَقَالُوا لِمُوسَى: هَلْ لأَنَّهُ لَيْسَتْ قُبُورٌ فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟ أَلَيْسَ هذَا هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمْنَاكَ بِهِ فِي مِصْرَ قَائِلِينَ: كُفَّ عَنَّا فَنَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ؟ لأَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ نَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: لاَ

---

(1) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد بن عبد الله. تحقيق: أحمد البردوني (جـ ١٦ص١٣٦) نشر دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٨٤ه ١٩٦٤م.

(2) سورة الشعراء. الآية (٥٣).

(3) سورة الشعراء. الآية (٥٤-٥٦).

(4) تفسير إيجاز البيان عن معاني القرآن. محمد بن الحسين النيسابوري. تحقيق: حنيف حسن (جـ ٢ص٦٢٢) نشر دار الغرب الإسلامي . الطبعة الأولى:١٤١٥ه.

(5) سورة الشعراء. الآية (٥٢-٦٧).

(6) سورة الشعراء. الآية (٦١-٦٢).

تَخَافُوا. قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمُ الْيَوْمَ؛ فَإِنَّهُ كَمَا رَأَيْتُمُ الْمِصْرِيِّينَ الْيَوْمَ، لاَ تَعُودُونَ تَرَوْنَهُمْ أَيْضًا إِلَى الأَبَدِ. الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ).[١]

فهذه الرواية تكشف لنا خفة هذه الشخصية وتطيرها مع أقرب حدث؛ فإن هذا التذمر لم يكن فقط وليد الخوف من الموقف؛ فإن المؤمنين أدركتهم أيضاً خشية من جلل الموقف إلا أن عودتهم إلى نبيهم طمأنتهم وهدأت من روعهم، وإنما هذه الصورة الصارخة في ضعف الإيمان والرضا بالمذلة والحياة المهينة والتسخير الذي يؤدي أيضاً إلى الموت: موت النفس والروح والأخلاق تشكف لنا أبعاداً من سمات هذه الشخصية. ثم قال:(فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. وَارْفَعْ أَنْتَ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ وَشُقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَهَا أَنَا أُشَدِّدُ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ؛ فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ جَيْشِهِ، بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ. فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَ أَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ).[٢]

وفي القرآن الكريم، قال تعالى:﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.[٣] أي الجبل.

وفي سورة طه:﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾.[٤] لأنه سبحانه لما أراد لفرعون وجنوده الهلاك قربهم من البحر، قال تعالى:﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾.[٥] أي: قربناهم.

---

(١) سفر الخروج (١٤: ١٠-١٣).
(٢) سفر الخروج (١٤: ١٥-١٨).
(٣) سورة الشعراء. الآية (٦٣).
(٤) سورة طه. الآية (٧٧).
(٥) سورة الشعراء. الآية (٦٣-٦٤).

وجاء في التوراة:(فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ، وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ..).[١]

وفي القرآن:﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ[٧٨] وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.[٢] أي قومه ممن اتبعوه في الدنيا بأن تسبب في إغراقهم، وفي الآخرة موقفهم من أنبيائه وبالآيات التي أرسلوا بها؛ وبعتوه وتكبره، وقال:﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ [٦٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.[٣] وكل ذلك:﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.[٤] وفي التوراة(فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ).[٥]

ولا ريب أن في هذه الواقعة آية لمن له قلب، قال تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[٦]

وهذه إشارة من القرآن دقيقة عجيبة تظهر أنهم حتى مع هذه الآية العظيمة التي كانوا شهوداً عليها بل هم جزء من أحداثها، ومع ذلك لم يؤمن أكثرهم؛ فلا نستوحش من فعل أخلافهم إذا كان ذلك حال أسلافهم؛ فقد ذكر الله تعالى أنه ما آمن مع موسى:﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾.[٧]

بينما في النص التوراتي يظهر أن الشعب خاف الرب وآمن به وبموسى يقول:(وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ؛ فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ، وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى).[٨]

---

(١) سفر الخروج (١٤: ٢٩).
(٢) سورة طه. الآية (٧٨-٧٩).
(٣) سورة الشعراء. الآية (٦٥-٦٦).
(٤) سورة البقرة. الآية (٥٠).
(٥) سفر الخروج (١٤: ٣٠-٣١).
(٦) سورة الشعراء. الآية (٦٥-٦٧).
(٧) سورة يونس . الآية (٨٣).
(٨) سفر الخروج (١٤: ٣٠-٣١).

وهذا النص يضعنا في حيرة من هذا الإيمان؛ الذي نقض بعد أيام فقط من هذه الواقعة وهو ما سنعرض له في ذكر باقي النعم– إذ أن المفهوم من هذه الفقرة أن هذا تجديد للإيمان وليس إنشاء له إن كان القوم كانوا قد آمنوا قبل !! تذكر التوراة أن بني إسرائيل بعد ثلاثة أيام – فقط– بعد هذه الواقعة العظيمة والآية العجيبة في سيرهم في البرية (لَمْ يَجِدُوا مَاءً..؛ فَتَذَمَّرَ الشَّعْبُ عَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «مَاذَا نَشْرَبُ؟).[1] وهذه الواقعة لم يرد ذكرها في القرآن وإنما الآخرة التي ضرب فيها الصخر فانفجر عيوناً ولكن استوقفنا اللفظ "فتذمر" على من أخرجه من العبودية ونجاه من الأهوال فهل هذا يعجز أن يسقيهم الماء؟!

ومما نستفيده من مقارنة هذه الروايات بما جاء في القرآن الكريم:

إظهار نعمة أخرى أنعم عليهم بها بجانب هذه النعمة العظيمة – الطريق اليابس في البحر وفلقه– فإنه تعالى أمر موسى بعد أن ضرب البحر فانفلق أن يترك البحر على حالته، قال تعالى:﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾.[2] ورهواً أي ساكناً ذلك أن الإنسان من شدة الخوف قد يفعل ما فيه ضرره؛ فمن الطبيعي أن موسى حين يرى أن فرعون قد اقترب منهم وسار البحر بينهما أن يرد البحر كما كان؛ فيفوز بتعطيل فرعون وجنوده، ولكنه هذا لن ينجيهم منه؛ إذا لو عاد البحر كما كان أمواجاً مضطربةً وصار حاجزاً بينهم؛ لالتف حوله فرعون وجنوده وأدرك موسى ومن معه في البرية حتماً في البرية.

وتلك نعمة أخرى من الله سبحانه وتعالى عليهم. فالرواية في التوراة تقول:(فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى

(1) سفر الخروج (١٥: ٢٢-٢٤).
(2) سورة الدخان. الآية (٢٤).

مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ؛ فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ؛ فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ).[1]

وفي القرآن يصور لنا الله تعالى حالة فرعون أثناء هذه الشدة؛ فيقول:﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.[2]

وهذه هي حال كل عنيد، وفيها إشارة أيضاً إلى صفة تغافلهم عن الآيات التي رأوها بأعينهم في مصر قبل وأثناء وبعد الخروج، ويؤكد هذا المعنى كثرة تذكيرهم بهذه النعمة في مواضع كثيرة من كتبهم، ومنها، قوله:(وَآيَاتِهِ وَصَنَائِعَهُ الَّتِي عَمِلَهَا فِي مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ وَبِكُلِّ أَرْضِهِ، وَالَّتِي عَمِلَهَا بِجَيْشِ مِصْرَ بِخَيْلِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ، حَيْثُ أَطَافَ مِيَاهَ بَحْرِ سُوفٍ عَلَى وُجُوهِهِمْ حِينَ سَعَوْا وَرَاءَكُمْ، فَأَبَادَهُمُ الرَّبُّ إِلَى هذَا الْيَوْمِ)[3]

وقال:(فَأَخْرَجْتُ آبَاءَكُمْ مِنْ مِصْرَ، وَدَخَلْتُمُ الْبَحْرَ وَتَبِعَ الْمِصْرِيُّونَ آبَاءَكُمْ بِمَرْكَبَاتٍ وَفُرْسَانٍ إِلَى بَحْرِ سُوفٍ. فَصَرَخُوا إِلَى الرَّبِّ، فَجَعَلَ ظَلاَمًا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ، وَجَلَبَ عَلَيْهِمِ الْبَحْرَ فَغَطَّاهُمْ. وَرَأَتْ أَعْيُنُكُمْ مَا فَعَلْتُ فِي مِصْرَ).[4]

وقال:(وَفَلَقْتَ الْيَمَّ أَمَامَهُمْ، وَعَبَرُوا فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَطَرَحْتَ مُطَارِدِيهِمْ فِي الأَعْمَاقِ كَحَجَرٍ فِي مِيَاهٍ قَوِيَّةٍ).[5]

---

(1) سفر الخروج (١٤: ٢٦-٢٨).
(2) سورة يونس. الآية (٩٠-٩٢).
(3) سفر التثنية (١١: ٣-٤).
(4) سفر يوشع (٢٤: ٦-٧).
(5) سفر نحيميا (٩: ١١).

وقال:(وبعد أن طردهم المصريون من أرضهم و كفت الضربة عنهم، أرادوا إمساكهم؛ ليردوهم إلى عبوديتهم، و فيما هم هاربون؛ فلق لهم إله السماء البحر، وجمدت المياه من الجانبين؛ فعبروا على حضيض البحر على اليبس، وتعقبهم هناك جيش المصريين بلا عدد؛ فغمرتهم المياه حتى لم يبق منهم أحد يخبر أعقابهم).[١]

وقال:(وعبرت بهم البحر الأحمر وأجازتهم المياه الغزيرة، أما أعداؤهم فأغرقتهم ثم قذفتهم من عمق الغمار على الشاطئ؛ فسلب الصديقون المنافقين).[٢]

وقال:(ومما كان قبلا يغمر بالمياه برزت أرض يابسة طريق ممهد في البحر الاحمر و مرج أخضر في قعر لجة عظيمة، هناك عبرت الأمة كلها وهم في ستر يدك يرون عجائب الآيات، ورتعوا كالخيل، ووثبوا كالحملان مسبحين لك أيها الرب مخلصهم) [٣]

وقال:(وساق مثل الغنم شعبه، وقادهم مثل قطيع في البرية، وأهداهم آمنين؛ فلم يجزعوا، أما أعداؤهم فغمرهم البحر).[٤]

وقال:(وانتهر بحر سوف؛ فيبس وسيرهم في اللجج كالبرية، وخلصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو، وغطت المياه مضايقيهم واحد منهم لم يبق؛ فآمنوا بكلامه غنوا بتسبيحه).[٥]

وقال:(وأخرج إسرائيل من وسطهم، لأن إلى الأبد رحمته، بيد شديدة وذراع ممدودة، لأن إلى الأبد رحمته، الذي شق بحر سوف إلى شقق لأن إلى الأبد

---

(١) سفر يهوديت (٥: ١١-١٤).
(٢) تتمة سفر أستر (٨ :١٨-١٩).
(٣) تتمة سفر أستر (١٩ :٧-١٠).
(٤) سفر المزامير ٢ (٧٨: ٥٢-٥٣).
(٥) سفر المزامير ٢ (١٠٦: ٩-١٢).

رحمته، وعبر إسرائيل في وسطه لأن إلى الأبد رحمته، ودفع فرعون وقوته في بحر سوف لأن إلى الأبد رحمته).[١]

ومن القضايا التي يفضل ذكرها والوقوف أمامها ما جاء في التوراة: (وَكَانَ لَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ الشَّعْبَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لأَنَّ اللهَ قَالَ: لِئَلاَّ يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ؛ فَأَدَارَ اللهُ الشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ بَحْرِ سُوفٍ).[٢] وهذه الرواية تظهر صفة الجبن التي ترسخت في أعماقهم أثراً للاستعباد وضعف الإيمان كذلك والرضا بالذل والصغار أثراً لهذا الخوف إذ لو عرفوا أنهم ملاقون أقوماً أشداء لرجعوا إلى موقف فرعون وقومه ولا يخفى ما في ذلك من عدم الأخلاق، كذلك لا يخفى ما فيها هذه الرواية من مسائل تتعلق بصفات الله تعالى سنناقشها إن شاء الله في البحث المطول.

كما جاء فيها:(وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْجِعُوا ....، تَتْزِلُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ؛ فَيَقُولُ فِرْعَوْنُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: هُمْ مُرْتَبِكُونَ فِي الأَرْضِ، قَدِ اسْتَغْلَقَ عَلَيْهِمِ الْقَفْرُ، وَأُشَدِّدُ قَلْبَ فِرْعَوْنَ حَتَّى يَسْعَى وَرَاءَهُمْ؛ فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ جَيْشِهِ، وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ) .[٣]

والقرآن يبين أن أسباب إغراق فرعون وجنوده غير ذلك:

أولا: كفره واستكباره، وعدوانه وبغيه:

قال تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.[٤]

---

(١) سفر المزامير ٢ (١٣٦: ١١-١٥).
(٢) سفر الخروج (١٣: ١٧-١٨).
(٣) سفر الخروج (١٤: ١-٤).
(٤) سورة يونس . الآية (٧٥).

وقال:﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.(١)

وقال:﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾.(٢)

وقال:﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.(٣)

ثانياً: استجابة دعوة نبي الله موسى عليه السلام وعباده المؤمنين:

قال تعالى:﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.(٤)

ثالثا: نقضه للعهود: قال تعالى:﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.(٥)

---

(١) سورة القصص. الآية (٣٩-٤٠).
(٢) سورة يونس. الآية (٩٠).
(٣) سورة الذاريات. الآية (٣٨-٤٠).
(٤) سورة يونس . الآية (٨٣-٨٩).
(٥) سورة الأعراف. الأية (١٣٤-١٣٦).

رابعاً: العبرة والعظة لمن يأتي بعده: قال تعالى:﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.[1] ومن خلال هذه الواقعة التي اتفق القرآن والتوراة على حدوثها وإنجاء بني إسرائيل فيها بفلق البحر وجعله طريقاً يبساً لهم وإغراق عدوهم؛ فإننا نخرج من ذلك بفوائد كما قال الإمام الرازي في تفسيره: "اعلم أن هذه الواقعة تضمنت نعماً كثيرة في الدين والدنيا:

أما نعم الدنيا في حق موسى عليه السلام فهي من وجوه:

(١)- إنهم لما وقعوا في ذلك الضيق إذ من ورائهم فرعون وجنوده، وأمامهم البحر؛ فإن توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب، وإن ساروا غرقوا؛ فلا خوف أعظم من ذلك، ثم إن الله نجاهم بفلق البحر؛ فلا فرج أشد من ذلك.

(٢)- إن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة، وذلك سبب لظهور كرامتهم على الله تعالى.

(٣)- إنهم شاهدوا أن الله تعالى أهلك أعداءهم، ومعلوم أن الخلاص من مثل هذا البلاء من أعظم النعم، فكيف إذا حصل معه ذلك الإكرام العظيم، وإهلاك العدو؟!

(٤)- إنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم ونعمهم وأموالهم.

(٥)- إنه تعالى لما أغرق آل فرعون؛ فقد خلص بني إسرائيل منهم، وذلك نعمة عظيمة؛ لأنه كان خائفاً منهم ولو أنه تعالى خلص موسى وقومه من تلك

---

(1) سورة يونس. الآية (٩٠-٩٢).

الورطة وما أهلك فرعون وقومه، لكان الخوف باقياً من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقصدوا إيذاء موسى عليه السلام وقومه، ولكن الله تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية.

(٦)- إنه وقع ذلك الإغراق بمحضر من بني إسرائيل، وهو المراد من قوله تعالى﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وأما نعم الدين في حق موسى عليه السلام فمن وجوه:

(١)- إن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات؛ فإن دلالة مثل هذة المعجزة على وجود الصانع الحكيم، وعلى صدق موسى عليه السلام تقرب من العلم الضروري.

(٢)- وثانيها إنهم لما عاينوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له وصار ذلك داعياً لقوم فرعون إلى ترك تكذيب موسى عليه السلام والإقدام على تكذيب فرعون.

(٣)- إنهم عرفوا أن الأمور بيد الله؛ فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا شدة أشد مما كانت ببني إسرائيل، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً والذليل عزيزاً، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور.[١]

إلا أن ما كان من بني إسرائيل وما قاموا به مخالف لما كان يرجى منهم، ومن تذكيرهم المتكرر بالنعم: من شكر الله المنعم وحمده تعالى، وكالثبات على

(١) التفسير الكبير للرازي (جـ ٣ص٦٧) بتصرف والاستشهاد بالتوراة منها وليس من الإمام لمناسبة موضوع البحث..

الإيمان بعد الآيات البينات، بل تتفق نصوص القرآن والتوراة على أحداثٍ كثيرة وقعت وإن اختلف ترتيب ورودها، كما أن هناك وقائع انفرد القرآن بذكرها تبين أن ما حدث ضد ما كان يرجى، ومنها ما قصه علينا تعالى، قال جلا وعلا:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[١]

وهذه الواقعة لم تشر إليها التوراة –حسب اطلاعي– وإنما ذكرت في القرآن فقط، إلا أنهما اتفقا على أن بني إسرائل اتخذوا عجلاً معبودا لهم حين ذهب موسى للقاء ربه؛ ليأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه– كما طلبوا منه– فوعده الله سبحانه وتعالى أن يعطيه "التوراة" بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته؛ وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقي "التوارة" من ربه؛ اتخذ بنو إسرائيل عجلاً جسداً له خوار فعبدوا من دون الله، وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقهم؛ فرجع إليهم غاضباً حزيناً وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم، فلما فعلوا ذلك عفا الله عنهم لكي يشكروه ويلتزموا الصراط المستقيم.[٢]

إلا أن ما تأصل في نفوسهم من عناد .... يدفع في مقابله كل شكر وحمد وإيمان ...، حتى آل بهم الحال أن قابلوا نعم الله بغير الشكر حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثالٌ في الغباوة والبلادة، وهو العجل.[٣]

---

(١) سورة الأعراف. الآية (١٣٨-١٤٠).
(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة. الدكتور محمد سيد طنطاوي (ص٣٥٧).
(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة. بتصرف (ص٣٥٧).

ومن جملة النعم التي أنعم الله عليهم بها وقابلوها بتلك الخصال التي صارت سمةٌ لهم: نعمة إنزال المن والسلوى، وسقيى الماء، وإنزال التوراة، والعفو عنهم بعد اتخاذهم العجل معبوداً، والنكول عن الدخول إلى الأرض التي كتب الله لهم... وغير ذلك الكثير من النعم التي قابلوها بخصالهم وأخلاقهم ، والتي سنعرض لها في البحث المطول إن شاء الله وقدر.

المطلب الرابع

نعمة إنزال المن والسلوى

تذكر التوراة أنه في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني للخروج من مصر (فَتَذَمَّرَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ- كل الجماعة- عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشَّبَعِ؛ فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هذَا الْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ).[1]

وهذه الصورة حقيقة أصبحت غير مستغربة بعد كل الذي وقع من هذا الشعب رغم أن إنزال "المني والسلوى" نعمة ذكرها القرآن في مواضع منه مجملة على سبيل التذكير بالنعمة للحث على الشكر وحمد المنعم:

قال تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.[2]، قال تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[3]

وهذا يبين لنا أن طباعهم –وكالعادة– تغلب تطبعهم؛ فإنهم بعصيانهم ومقابلتهم النعم بغير الشكر والحمد إنما يظلمون أنفسهم، ذلك أنهم في هذه النعمة

---

(1) سفر الخروج (١٦: ٢-٣).
(2) سورة طه. الآية (٨٠-٨٢).
(3) سورة الأعراف. الآية (١٦٠).

تحديداً التي لا شقاء فيها على آكل قالوا:﴿ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.[1]

وهذا القول منهم يؤكد سرعة تقلبهم؛ فقد ملوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول، قال الحسن:" كانوا نتانى، أهل كراث وأبصال وأعداس؛ فنزعوا إلى عكرهم –عكر السوء– واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم؛ فقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان؛ لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، فلذلك قالوا: طعام واحد.[2] كما أن قولهم:"لن نصبر" يبيّن ضعف إرادتهم؛ فإن الصر هو حبس النفس على الشيء بمعنى إلزامها إياه ومنه الصبر على الطاعات أو يطاق على حبسها بمعنى كفها، ومنه الصبر عن المعاصي".[3]

ورد موسى عليهم السلام عليهم فيه توبيخ لهم وإن كان خارجاً في صورة استفهامية، كما أن فيه معنى إيكالهم إلى النفس فيما يطلبون بعد أن كان رزقهم يأتيهم رغداً دون عناء.

---

(1) سورة البقرة الآية (٦١).
(2) تفسير القرطبي (جـ ١ص٤٢٢).
(3) انظر: بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ٣٨٢).

كما أن في المسكنة معنى الإلزام والقضاء عليهم بذلك؛ وفي المسكنة قولان: أحدهما: أنها الفقر والفاقة، قاله أبو العالية، والسدي، وأبو عبيدة، وروي عن السدي قال: هي فقر النفس، والثاني: أنها الخضوع.(١)

وفي رواية التوراة تفصيل للحادثة تكشف عن قضايا مهم أن نتطرق إليها- لفائدتها لموضوع البحث- منها:(فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى:هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ. فَيَخْرُجُ الشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُونَ حَاجَةَ الْيَوْمِ بِيَوْمِهَا. لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، أَيَسْلُكُونَ فِي نَامُوسِي أَمْ لاَ...، وفِي الصَّبَاحِ تَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ ... ذلِكَ بِأَنَّ الرَّبَّ يُعْطِيكُمْ فِي الْمَسَاءِ لَحْمًا لِتَأْكُلُوا، وَفِي الصَّبَاحِ خُبْزًا لِتَشْبَعُوا، لاسْتِمَاعِ الرَّبِّ تَذَمُّرَكُمُ الَّذِي تَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ. وَأَمَّا نَحْنُ فَمَاذَا؟ لَيْسَ عَلَيْنَا تَذَمُّرُكُمْ بَلْ عَلَى الرَّبِّ... فَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى صَعِدَتْ وَغَطَّتِ الْمَحَلَّةَ، وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدَى حَوَالَيِ الْمَحَلَّةِ... فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ هُوَ؟ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا. هذَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ. اِلْتَقِطُوا مِنْهُ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ، وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: لاَ يُبْقِ أَحَدٌ مِنْهُ إِلَى الصَّبَاحِ لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى بَلْ أَبْقَى مِنْهُ أُنَاسٌ إِلَى الصَّبَاحِ، فَتَوَلَّدَ فِيهِ دُودٌ وَأَنْتَنَ. فَسَخَطَ عَلَيْهِمْ مُوسَى...، ثُمَّ كَانَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ أَنَّهُمُ الْتَقَطُوا خُبْزًا مُضَاعَفًا، ..، فَقَالَ لَهُمْ: هذَا مَا قَالَ الرَّبُّ: غَدًا عُطْلَةٌ، سَبْتٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. اخْبِزُوا مَا تَخْبِزُونَ وَاطْبُخُوا مَا تَطْبُخُونَ. وَكُلُّ مَا فَضِلَ ضَعُوهُ عِنْدَكُمْ لِيُحْفَظَ إِلَى الْغَدِ ...، وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّ بَعْضَ الشَّعْبِ خَرَجُوا لِيَلْتَقِطُوا فَلَمْ يَجِدُوا؛ فَقَالَ الرَّبُّ

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي (جـ ١ص ٧٢) نشر دار الكتاب العربي .بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢ه.

لِمُوسَى:(إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَايَ وَشَرَائِعِي؟).[1] وهذا الخبز (دعاه بيت إسرائيل اسمه "مناً").[2] وفي هذا الجزء من القصة؛ وقفات:

أولاً: استجابة الله له لهم ؛ فأنزل عليهم طعاماً دون كلفة عليهم؛ إلا الاختبار جزاء لهذا التذمر– وهو الثالث حسب رواية التوراة – على نعم الله وسوء الطلب الذي كان منهم يبين رحمة ربنا تعالى بهم، وسوء خلقهم.

ثانياً: تمنيهم الموت في أرض مصر حيث الشبع مع المذلة، واتهمامهما رسولا الله بأنهما أخرجاهما ليقتلوهم في البرية بالجوع بعد تلك الآيات العظيمة والنعم المديدة ولم يخطر في بالهم أن الذي أعذب لهم الماء المالح يستطيع أن يطعمهم من حيث لا يحتسبون.

ثالثاً: حتى لما نزل عليهم المن والسلوى وأكلوا حتى شبعوا لم يكن لديهم من اليقين أن الذي أنزل عليهم ذلك يضمن لهم غيره أو منه بعد؛ فادخر أناس منهم طعاماً رغم تحذير موسى لهم؛ فأنتن وكان هذا نوعا من التحذير أيضا لا العقاب، فتبارك الرحيم؛ فما كان المنع إلا ليعلمهم كيف يتكلون على الله لا علم أنفسهم وفهمهم؛ ليعتادوا التوكل الصحيح.

رابعاً: لما جعل لهم السبت عطلة مقدسة حملهم عدم اليقين أيضاً على المخالفة ؛ فخرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا ما يجمعوه؛ فكان السخط عليهم وفاقاً .

---

(1) سفر الخروج (١٦: ١-٢٧).
(2) سفر الخروج (١٦: ٣١).

المطلب الخامس

نعمة إغاثتهم بالماء بعد العطش في القفر

ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة سقي الماء التي أنعم بها على بني إسرائيل؛ فقال:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.[1]

وقال تعالى:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.[2]

وهذا الختم للآية له دلالته: فإن فيه تحذيراً من البطر والغرور واستعمال النعمة في غير ما وضعت له بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات؛ لأن النعمة عندما تكثر قد تنسي العبد حقوق خالقه؛ فيهجر الشريعة ويعيث في الأرض فساداً ...، ولا تسعوا في الأرض مفسدين، وتقابلوا النعم بعدم الشكر فتسلب عنكم؛ وأصل العثاء شدة العناد.[3]

ونعمة الاستسقاء من جملة الإنعامات التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وهي نعمة جامعة لنعم الدين والدنيا:

أما في الدنيا: فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء، ولولاه لهلكوا ...، والإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد؛ لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان

---

(1) سورة الأعراف. الآية (١٦٠).
(2) سورة البقرة الآية (٦٠).
(3) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ٣٧٧) بتصرف.

لا ماء فيه ولا نبات، فإذا رزقه الله الماء من حجر ضرب بالعصا؛ فانشق واستقى منه علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم.

وأما كونه من نعم الدين: فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ومن أصدق الدلائل على صدق موسى عليه السلام.[١]

وفي التوراة: أنهم ارتحلوا بأمر من الله:(وَلَمْ يَكُنْ مَاءٌ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ؛ فَخَاصَمَ الشَّعْبُ مُوسَى وَقَالُوا: أَعْطُونَا مَاءً لِنَشْرَبَ؛ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: لِمَاذَا تُخَاصِمُونَنِي؟ لِمَاذَا تُجَرِّبُونَ الرَّبَّ؟ وَعَطِشَ هُنَاكَ الشَّعْبُ إِلَى الْمَاءِ، وَتَذَمَّرَ الشَّعْبُ عَلَى مُوسَى وَقَالُوا: لِمَاذَا أَصْعَدْتَنَا مِنْ مِصْرَ لِتُمِيتَنَا وَأَوْلاَدَنَا وَمَوَاشِيَنَا بِالْعَطَشِ؟ فَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ قَائِلاً: مَاذَا أَفْعَلُ بِهذَا الشَّعْبِ؟ بَعْدَ قَلِيل يَرْجُمُونَنِي؛ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مُرَّ قُدَّامَ الشَّعْبِ، وَخُذْ مَعَكَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، وَعَصَاكَ الَّتِي ضَرَبْتَ بِهَا النَّهْرَ خُذْهَا فِي يَدِكَ وَاذْهَبْ هَا أَنَا أَقِفُ أَمَامَكَ هُنَاكَ عَلَى الصَّخْرَةِ فِي حُورِيبَ، فَتَضْرِبُ الصَّخْرَةَ؛ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَاءٌ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ).[٢]

وبين الروايتين اختلاف في التصوير؛ فالقرآن استعمل فعل الطلب استسقى، والاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر وإذا كان كذلك؛ فالحكم حينئذ إظهار العبودية ... مع التوبة النصوح.[٣]

بينما تظهر الرواية التوراتية: تكرار المخاصمة كما أن طلبهم للماء بصورة تشي بعدم الإيمان وتكرار نفس المقارنة بين حياة المذلة حيث الأكل والشرب حتى الشبع وإن كانت حياة غير مرضية ، وبين نعم الله تعالى التي لا يقابلها شيء.

---

(١) تفسير الرازي (جـ ٣ ص٥٢٨).
(٢) سفر الخروج (١٧: ٣-٦).
(٣) تفسير القرطبي (جـ ١ص ٤١٨).

المطلب السادس

نعمة عفوه – سبحانه وتعالى– عنهم بعد عبادتهم العجل

إن قضية العفو المتكرر عن بني إسرائيل من القضايا التي اتفقت عليها نصوص القرآن والتوراة فمنذ أن أرسل الله لهم نبيه موسى عليه السلام وهم بين طاعة ومعصية وإيمان وردة؛ جاء في التوراة:(اُذْكُرْ. لاَ تَنْسَ كَيْفَ أَسْخَطْتَ الرَّبَّ إِلهَكَ فِي الْبَرِّيَّةِ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي خَرَجْتَ فِيهِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى أَتَيْتُمْ إِلَى هذَا الْمَكَانِ كُنْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ).[1]

ومن قبل ذلك جاء في التوراة أيضاً أن فرعون لما جاءه موسى وطلب منه يخرج معه بني إسرائيل فما كان من فرعون إلا أن زاد ظلمه لبني إسرائيل، وما كان منهم إلا ما اتفق عليه القرآن والتوراة من تذمرهم بعد أن رآوا الأيات البينات؛ فقالوا لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.[2] وجاء في التوراة:(وَصَادَفُوا مُوسَى وَهَارُونَ وَاقِفَيْنِ لِلِقَائِهِمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ؛ فَقَالُوا لَهُمَا: يَنْظُرُ الرَّبُّ إِلَيْكُمَا وَيَقْضِي؛ لأَنَّكُمَا أَنْتَنْتُمَا رَائِحَتَنَا فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عَبِيدِهِ حَتَّى تُعْطِيَا سَيْفًا فِي أَيْدِيهِمْ لِيَقْتُلُونَا)[3]

ولا ريب أن الصورة التي نقلها القرآن الكريم أخف وطأة من تلك التي صورتها التوراة؛ فإن قوله:"ينظر الله إليكما ويقضي.." أي: يعاقبكما على ما أوصلتمونا إليه من العذاب، ولا تزالا على أمركما حتى تعطيا لفرعون وآله سيفاً ليقتلونا، وفي هذا

---

(1) سفر التثنية (٩: ٧).
(2) سورة الأعراف.الآية (١٢٩).
(3) سفر الخروج (٥: ٢٠-٢٢).

تلميح بعدم تصديق أنهما رسولا الله يبلغا عن الله ربهما لا أمراً من نفسيهما[١]، ولكنمها– القرآن والتوراة– اتفقا على أن الله تعالى شملهم بعفوه الكريم.

ومن تلك الخطايا التي عفا الله عنها "اتخاذهم العجل معبوداً من دون الله"؛ قال تعالى:﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.[٢]

قال تعالى:﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.[٣]

وذلك أن بني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من فرعون وجنوده وفلق لهم البحر فشقه شقين فكان كل فرق كالطود العظيم، وأغرق فرعون وجنودهم وهم ينظرون، وأراهم من الآيات الكثيرة رغم جحودهم وكفرهم المتكرر، طلبوا من موسى عليه السلام أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه؛ فوعده تعالى أن يعطيه التوراة "الألواح" بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، قال تعالى:﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.[٤]

وقال تعالى:﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.[٥] وفي التوراو:(وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً).[٦]

---

(١) انظر: السنن القويم في تفسير العهد القديم ـ تفسير سفر الخروج (ص٢٨) هكذا يرى مفسري أهل الكتاب، وهو ما يعضض كلامنا فلا نتهم بالتحيز أو المعادة بل هي معاني كتبهم المقدسة لديهم والتي يعتقدون أنها كلها كلام الله.

(٢) سورة البقرة. الآية (٩٢).

(٣) سورة النساء. الآية (١٥٣).

(٤) سورة البقرة. الآية (٥٠-٥٠).

(٥) سورة الأعراف.الآية (١٤٢).

(٦) سفر الخروج (٢٤: ١٨).

وفي التوراة:(وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: اصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الْجَبَلِ، وَكُنْ هُنَاكَ، فَأُعْطِيَكَ لَوْحَيِ الْحِجَارَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتَعْلِيمِهِمْ).[١]

فلما شرع- موسى عليه السلام- "في النهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل رأى علي جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادراً إلى أمر الله تعالى، وحرصا على القرب منه وشوقا إلى مناجاته"[٢] فقال تعالى:﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى [٨٣] قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.[٣] أي: طلباً لزيادة رضاك، وفي قوله: وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين، واختلفوا في المراد بالقوم؛ فقال بعضهم: هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقاً إلى ربه، وقال آخرون: القوم جملة بني إسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هارون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين؛ فقال: هم أولاء على أثري يعني بالقرب مني ينتظرونني"[٤]

وفي التوراة:(فَقَامَ مُوسَى وَيَشُوعُ خَادِمُهُ. وَصَعِدَ مُوسَى إِلَى جَبَلِ اللهِ، وَأَمَّا الشُّيُوخُ فَقَالَ لَهُمُ: اجْلِسُوا لَنَا ههُنَا حَتَّى نَرْجعَ إِلَيْكُمْ).[٥]

واستخلف موسى أخاه هارون عليهما السلام على بني إسرائيل"[٦]

---

(١) سفر الخروج (٢٤: ١٢).
(٢) تفسير ابن عطية (جـ ٤ص٥٧)
(٣) سورة طه. الآية (٨٣-٨٤).
(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازي محمد بن عمر فخر الدين. (جـ ٢٢ص٨٦) نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٢٠).
(٥) سفر الخروج (٢٤: ١٣-١٤).
(٦) تفسير ابن عطية (جـ ٤ص٥٧)

قال تعالى:﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.[1]

وفي التوراة:(وَهُوَذَا هَارُونُ وَحُورُ مَعَكُمْ. فَمَنْ كَانَ صَاحِبَ دَعْوَى فَلْيَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمَا).[2]

وقال لهم موسى عليه السلام تسيرون إلى جانب الطور"[3]

وفي التوراة:(وَتُقِيمُ لِلشَّعْبِ حُدُودًا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، قَائِلاً: احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ أَوْ تَمَسُّوا طَرَفَهُ).[4]

فلما انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه زاده في الأجل عشراً، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القوم؛ ليخبره موسى: أنهم على الأثر؛ فيقع الإعلام له بما صنعوا".[5]

وفي التوراة:(فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: اذْهَبِ انْزِلْ؛ لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكًا، وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ).[6]

---

(1) سورة الأعراف.الآية (١٤٢).
(2) سفر الخروج (٢٤: ١٤).
(3) تفسير ابن عطية (جـ ٤ص٥٧)
(4) سفر الخروج (١٩: ١٢).
(5) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. عبد الحق بن غالب الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي (جـ ٤ص٥٧) نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢ه.
(6) سفر الخروج (٣٢: ٧-٨).

وفي القرآن قال تعالى:﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.[1] أي:"ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون؛ فافتتنوا بالعجل من بعدك، أي: من بعد انطلاقك إلى الجبل، وأضلهم السامري، أي: دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل، وأضاف الضلال إلى السامري؛ لأنهم ضلوا بسببه".[2]

وما كان: أن قوم موسى استبطؤوه؛ فانتكسوا واتخذوا معبوداً من دون الله.

ذكر في التوراة:"وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ).[3]

وفي هذه الرواية قضايا تتعارض مع رواية القرآن الكريم وهي ما ستكشفه المقابلة، إلا أن ما نستفيده من هذا التصوير هو الكشف عن حال هذا الشعب سريع التقلب بين الأمر ونقيضه في سرعة عجيبة كما تبين كم هم سريع الانسياق تلبية رغباتهم.

واتخاذهم العجل معبوداً من دون الله – تعالى– ذكر في كتاب الله مبيّناً في أسلوب دقيقٍ: كيف أن عقول هؤلاء الناس لم تدفعهم أبداً إلى المقارنة بين تصوراتهم الذهنية عن الإله التي ترسخت خلال سنين العبودية في مصر، وبين الحقيقة التي تكشفت لهم في الآيات التي رأوا بأعينهم، وأن الإله الحق مغاير لهذه التصورات، وهذا ما عابه الله عليهم إذ كيف يقدمون من لا يملك لهم ضراً ونفعاً، ولا يرجع إليهم قولاً، ولا يهديهم سيلاً. ومنه نعرف كم كان هؤلاء عنيدين أغبياء كما

---

(1) سورة طه. الآية (٨٥).

(2) تفسير البغوي معالم التنزيل. الحسين بن مسعود بن محمد الفراء. تحقيق: عبد الرزاق المهدي (جـ ٣ ص ٢٧١) نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٠ه.

(3) سفر الخروج (٣٢: ١-٦).

وصفتهم التوراة[١] (جِيلٌ أَعْوَجُ مُلْتوٍ. أَلْرَّبَّ تُكَافِئُونَ بِهذَا يَا شَعْبًا غَبِيًّا غَيْرَ حَكِيمٍ؟).

قال تعالى:﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[٢]

وقوله: من بعده، أي من بعد مضيه لميقات ربه وغيابه عنهم، وفيه زيادة تشنيع عليهم حيث وصمهم سبحانه بعدم الوفاء؛ لأنهم كان من الواجب عليهم – لو كانوا يعقلون– أن يستمروا على توحيد الله في غيبة نبيهم لا سيما وقد رأوا من المعجزات والنعم ما يطمئن النفوس ويقوي الإيمان ويغرس في القلوب الطاعة لله تعالى[٣]

جاء في التوراة:(اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ؛ فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا؛ فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ، فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا، فَقَالُوا: هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ:غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ، فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ، وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ).[٤]

في هذه الرواية التوراتية قضية غاية في الخطورة، وهي اتهام نبي الله هارون بأنه أجابهم إلى طلبهم وهو نبي مرسل مع موسى ؟! وأنه أيضا صانع العجل بيده

---

(١) جاء في سفر التثنية (٣٢: ٢٨-٢٩)
(٢) سورة الأعراف. الآية (١٤٨).
(٣) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ٣٥٧).
(٤) سفر الخروج (٣٢: ١-٦).

بالإزميل، وباني المذبح والداعي إلى اتخاذ عيدٍ لذلك المعبود، وهي قضايا تنافي حقيقة النبوة وتقدح فيها، والعجيب أنها مذكورة في سفر الخروج وفي سفر التثنية، إلا أن في مزامير داود ما يفهم منه نقداً لهذه الدعوى الباطلة. قال في المزمور الثاني:(أَسْرَعُوا فَنَسُوا أَعْمَالَهُ.لَمْ يَنْتَظِرُوا مَشُورَتَهُ. بَلِ اشْتَهَوْا شَهْوَةً فِي الْبَرِّيَّةِ، وَجَرَّبُوا اللهَ فِي الْقَفْرِ؛ فَأَعْطَاهُمْ سُؤْلَهُمْ، وَأَرْسَلَ هُزَالاً فِي أَنْفُسِهِمْ، وَحَسَدُوا مُوسَى فِي الْمَحَلَّةِ، وَهارُونَ قُدُّوسَ الرَّبِّ)[1]

ومن أهم أعمالهم التي ذكرها هنا أنهم نسوا أعمال الله وذلك بسرعة كلية كأن لا معرفة لهم بما جرى من قبل؛ فكان الشعب متقلباً غير شكور، وغير ذاكر لما فعله الله معهم من عظائم وشر ما في الأمر أنهم فعلوا ذلك دون أن يطلبوا مشورة – ويحتمل الضمير أن المشورة من الرب، أو من موسى عن الله– ولا ريب أنهم لو انتظروا لكانت المشورة غير ما يشتهون.

ولقد كانت همتهم أن يأكلوا ويشربوا فقط، ويتساءلوا: هل يقدر الله أن يعطينا من الخيرات التي كانت لنا في أرض مصر؟

لكن الله أعطاهم ما سألوه وإذا نفوسهم المتكبرة المعظمة تنخذل أمام الله فكان سؤالهم متعدد النواحي، ثم لم يكن نكولهم خطيئتهم الوحيدة بل كانت لهم خطايا أخرى، وهي موقفهم من رؤسائهم الغير مرضي "[2]

وهذا الموقف الغير مرضي كشف عن صفة من صفات اليهود المتأصلة هو الحامل على اتهام هارون عليه السلام بهذه الكذبة، ... فكلما كانت فضيلة الإنسان

---

(1) سفر المزمور ٢ (١٠٦: ١٣-١٦).
(2) انظر: تفسر السنن القويم تفسير المزمور ٢ (ص ٢٠٣) بتصرف.

أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم، ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين.[١]

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نوسع من دلالة قوله تعالى عنهم:﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.[٢]

فيكون موقفهم هذا غير مقتصر على النبي صلى الله عليه وسلم فقط بل نفس الموقف من هارون ، وغيره من الأنبياء ؛ لأن هذا الخلق متأصل في نفوسهم وهو ما شهدت به كتبهم،

وهذا وقد برأ الله تعالى نبيه هارون في كتابه الكريم، وبين أن من صنع العجل لهم إنما هو "السامري". قال تعالى:﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ(٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.[٣]

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي (جـ ١٠ ص ١٠٤).
(٢) سورة النساء. الآية (٥٤).
(٣) سورة طه. الآية (٨٦-٩٤).

وفي هذه الرواية القرآنية كشفٌ بيّن لحقيقة موقف هؤلاء الناس مع أنبيائهم، وتبرأةً لهذا النبي الكريم من إفكهم، وكذلك كشفٌ لفرية أخرى وهي ما جاء في التوراة: أن الله أمرهم قائلاً:(حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ، بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ.).[1] وكيف أنهم لا يتورعون في تحريف كتابه وتبديل كلماته واتهام أنبيائهم بما ينقض حقيقة نبوتهم، فلا رادع إيماني ولا وازع أخلاقي حتى الخيانة والسرقة والخديعة باسم "سلب العدو" تحايلاً جعلوا لها نصاً ونسبوه إلى الله تعالى.

وإنما سمى الحلي أوزاراً؛ لأنهم كانوا أخذوها على وجه العارية، ولم يردوها، فكانت بجهة الخيانة.[2]

ثم يبين لنا تبارك وتعالى باقي الحديث فيحكي عن موسى ومناقشته للسامري؛ مبيناً لنا خلق الإنبياء عليهم السلام فإن إقامة الحجة أولاً قبل القضاء:﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.[3]

---

(1) سفر الخروج (٣: ٢١-٢٢).

(2) تفسير القرآن للسمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار. تحقيق: ياسر إبراهيم. (جـ ٣ ص ٣٤٨) نشر دار الوطن.الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٨ه ١٩٩٧م.

(3) سورة طه. الآية (٩٥-٩٨).

وهذه المواجهة صورتها التوراة أيضا لكن على فرض أن هارون هو صانع العجل؛ فجاء فيها:(فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ، وَاللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ، وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْنِ ....، وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ؛ فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: مَاذَا صَنَعَ بِكَ هذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ فَقَالَ هَارُونُ: لاَ يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي، أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ فِي شَرّ؛ فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا؛ لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ؛ فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ).[1]

وهذا النص كذلك يحمل في طياته ما جاء القرآن ببطلانه؛ إذ لما رجع موسى:﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.[2] أي: تتبع أمري ووصيتي، يعني: هلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم، وقيل: ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم؛ فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي خالفت أمري.[3]

---

(1) سفر الخروج (٣٢: ٢٤).
(2) سورة طه. الآية (٩٢-٩٣).
(3) تفسير البغوي معالم التنزيل. الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: محمد عبد الله النمر. (جـ ٥ص ٢٩١) نشر دار طيبة الرياض. الطبعة الرابعة ١٤١٧ه ١٩٩٧م

قال له هارون:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.[1] أي: خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزاباً يتقاتلون؛ فتقول: أنت فرقت بين بني إسرائيل، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي، وأصلح أي: ارفق بهم.[2]

وقال تعالى في سورة الأعراف:﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[3]

قال موسى:﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.[4]

وهذا الدعاء من موسى له ولأخيه غاية في تصوير أدب العبد مع السيد؛ ففيه رجاء من موسى بأن يغفر الله له تعجله في اللقاء، ولأخيه تأويله في تنفيذ أوامره؛ وهذا مخالف لما روي في التوراة وتصويرها للحادثة بصورة تقدّس ربنا وتعالى عنها، جاء في التوراة:(وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ؛ فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا؛ فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ، وَقَالَ: لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ

---

(1) سورة طه. الآية (٩٤).
(2) تفسير البغوي معالم التنزيل. الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: محمد عبد الله النمر. (جـ٥ص ٢٩١) نشر دار طيبة الرياض. الطبعة الرابعة ١٤١٧ه ١٩٩٧م
(3) سورة الأعراف. الآية (١٥٠).
(4) سورة الأعراف. الآية (١٥١- ١٥٢).

بِخُبْثٍ؛ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ، اُذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الأَبَدِ؛ فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ).[1] تعالى الله العزيز الحكيم العليم عما ينسب هؤلاء لله وأنبيائه علوا كبيرا.

أما بنو إسرائيل لما أسقط في أيدهم ورأوا أنهم قد ضلوا لم يكن لهم إلا أن قالوا:﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[2]

وكان من رحمة الله تعالى الواسعة وجوده أن عفى عنهم وأرشدهم إلى الطريقة التي بها يعفوا عن ذنوبهم، قال تعالى:﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[3]

أي تركنا معاجلتكم بالعقوبة ومحونا ذنوبكم؛ لتوبتكم من بعد اتخاذكم العجل معبوداً من دون الله رجاء أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم، وتستعملوا نعمته فيما خلقت له، وتتبعوا رسول الله، وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ما يدل على غباء بني إسرائيل وقصر نظرهم؛ لأنهم اتخذوا العجل إلهاً بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبيهم كما تضمنتا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية فكأنه سبحانه يقول له: إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعلَ ما يشبهه آباؤُهم الأقدمون مع نبيهم

---

(1) سفر الخروج (٣٢: ٩- ١٤).
(2) سورة الأعراف. الآية (١٤٩).
(3) سورة البقرة. الآية (٥٠-٥٠).

موسى؛ فلقد اتخذوا في غيبته عجلاً جسداً له خوار دون أن يفطنوا إلى أنه لا يملكهم ولا يهديهم سيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين"[١]

ونخلص من تلك الحادثة بالتعجب البالغ من سرعة تبدل هؤلاء الناس ومقابلتهم المتكررة للنعمة بعدم الشكر ، والمدح بالذم فموسى الذي خلصهم الله به صار "هذا الرجل" وتلك المدة التي غاب عنهم فيها وهي أيام أصحبت طويلة بالحد الذي جعلهم يقطعون بأنه لن يرجع؛ فطلبوا صناعة تمثال ليعبدوه، وهذا وإن أظهر شيئاً فيظهر أن صورة الأصنام والوثنية لم تزل في قلوبهم، ولم يتحرروا منها بعد، ولا من الذل والقهر الذي نشأوا عليه في مصر.

وبذلك يتبين أن موقف بني إسرائيل من آيات الله قد تأصل في نفوس بني إسرائيل حتى صار كالسجية الثابتة.

(١) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ٣٥٨)

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وبعد:

فبعد هذه الجولة في رياض كتاب الله تعالى لكشف قضايا لا يكشفه إلا عليم حكيم، عن مكنونات الإنسان، فمن خلال نصوصه المباركة؛ لاحظت أنه حين "يتحدث عن مظاهر النعم على بني إسرائيل يعقبها بموقفهم منها وما ترتب على موقفهم هذا من قصاص عادل؛ ليتناسب مع ما اقترفوه من آثام، فكأنه سبحانه يصورهم وهم يمرون بحالات ثلاث:"حالة المن والعطاء، وذلك ليكون في قصصهم عبرة وعظة تهدي الناس إلى أن يقوموا نحو خالقهم بواجب العبادة والشكر حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل ".[1]

وكيف أن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان. بل قابلوها بغير ذلك ، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التي منحها الله لبنى إسرائيل.

إن اختلاف العلماء في تعريف الأخلاق وعجزهم عن الوصول إلى تعريف صحيح جاع يدل دلالة واضحة على أن الأخلاق حال للنفس واعية لا من غير فكر أو روية منها ما يكون طبيعياً ومنا ما يكون مستفاداً بالعادة حتى يصير ملكة وخلقاً، لهذا يجب التحلي بالفضائل الأخلاقية وإخضاع قوى النفس لحكم العقل وسلطانه وتطهير الباطن وتصفية الروح. وبعد البحث قد توصلت إلى بعض من النتائج، وهي:

١- إن أسباب الفساد الخلقي هو البعد عن منهج الله تعالى والوحي

(١) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة. للدكتور: محمد سيد طنطاوي (ص ٣٣١).

الإلهي، ومخالفة الرسل.

٢- إن طبيعة النفس السيئة طبعت سلوكهم بالشر والكبر، كما قال تعالى:﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.[١]

ومن ثم يجب على كل من له عقل سليم أن يزكي نفسه بالخلق الحسن وطاعة الله تعالى.

٣- إن عدم الإيمان بالله تعالى، وفساد العقل والقلب وعدم الوفاء لله تعالى من أسباب نقض بني إسرائيل للعهود والمواثيق مع الله تعالى.

٤- لقد اتفقت رواية "التوراة، والقرآن" على أن شخصية بني إسرائيل تتصف بعدم الشكر، إذ ليس لديهم معياراً للحق، ولا تعريفاً للعدل.

٥- إن اتباع الهوى والظن من أهم أسباب الجحود لنعم الله تعالى عليهم والاستكبار على الأنبياء والرسل وفبدلوا نعم الله . والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة المائدة. الآية (٨٠).

ثبت المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

السنة المشرفة.

١- إحياء علوم الدين. للعزالي محمد بن محمد الطوسي. نشر دار المعرفة بيروت.

٢- الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني نشر دار القلم دمشق. الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٣- أخلاق النبي في الكتاب والسنة. أحمد عبد العزيز قاسم. رسالة جامعية. بجامعة أم القرى. قسم الكتاب والسنة. العام الجامعي. ١٤١٣هـ.

٤- أدب الدنيا والدين. للماوردي علي بن محمد بن حبيب نشر دار الحياة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. والبيتان لطاهر بن الحسين.

٥- بنو إسرائيل في الكتاب والسنة. الدكتور: محمد سيد طنطاوي نشر دار الشروق. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٦- تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. عبد الحق بن غالب الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٧- تفسير البغوي معالم التنزيل. الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: محمد عبد الله النمر. نشر دار طيبة الرياض. الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٨- تفسير البغوي معالم التنزيل. الحسين بن مسعود بن محمد الفراء. تحقيق: عبد الرزاق المهدي نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٩- تفسير القرآن للسمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار. تحقيق: ياسر إبراهيم. نشر دار الوطن.الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٠- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد بن عبد الله. تحقيق: أحمد البردوني نشر دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١١- التفسير الوسيط. للدكتور: محمد سيد طنطاوي نشر دار النهضة مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٢- تفسير إيجاز البيان عن معاني القرآن. محمد بن الحسين النيسابوري. تحقيق: حنيف حسن نشر دار الغرب الإسلامي . الطبعة الأولى:١٤١٥هـ.

١٣- تفسير مفاتيح الغيب للرازي محمد بن عمر فخر الدين. نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٢٠).

١٤- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. ابن مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب. نشر مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. الطبعة الأولى.حسن التنبه لما ورد في التشبه. الغزي محمد بن محمد العامري. تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين عتر. نشر دار النوادر. سوريا. الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

١٥- دراسات إسلامية في العلاقة الاجتماعية والدولية. للدكتور عبد الله دراز

١٦- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي نشر دار الكتاب العربي .بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١٧- السنن القويم في تفسير العهد القديم تفسير سفر الخروج

١٨- الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم "تاريخ وسمات ومصير" صلاح عبد الفتاح الخالدي نشر دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

في مقارنة الأديان.

١- لسان العرب . محمد بن مكرم بن منظور. نشر دار صادر . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٢- المحكم والمحيط الأعظم. لابن سيده تحقيق: عبد المحميد هنداوي. نشر دار الكتب العلمية. بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٣- مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي تحقيق: يوسف محمد. باب الخاء. مادة خلق. نشر الدار العصرية . بيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

٤- القاموس المحبط . محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . تحقيق: محمد نعيم عرقسوس نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٥- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. دكتور: محمد حسن جبل نشر دار الآداب القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠١٠م.

٦- مفاتيح الغيب. للرازي محمد بن عمر بن الحسين. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

٧- المفردات في غريب القرآن. للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد. تحقيق: صفوان الداودي. نشر دار القلم. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٨- النهاية في غريب الحديث الأثر. لابن الأثير المبارك بن محمد. تحقيق: طاهر الزواوي. محمود الطناحي. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى:١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.